

## الفصل الرابع: أدب الحرب والسلام

اقتضت ظروف الحرب العالمية الثانية أن تشهد الساحة الثقافية الأدبية  
لوناً جديداً من الأدب اتسم بالحديث عن الحرب والسلام... فدبجت  
المقالات ونظمت القصائد حينئذ ودخلت المعركة؛ معركة الحرب  
والسلام.

\*\*\*

## دار الوجد والمجد

تحت هذا العنوان نظم الشاعر زكي مبارك قصيدة عصماء نشرها على صفحات جريدة البلاغ، وبعد ذلك ضمها ديوانه الثاني «ألحان الخلود» توزيع مكتبة مصر بالفجالة، وقدمها بكلمة نثرية تبدأ من صفحة ٦٥ وقال فيها:

لو عاش «شوقي» إلى أن شهد ما تعاني الإسكندرية من كوارث  
وخطوب لواساها بأطايب الشعر البليغ.

فإلى روحه في دار الخلود أهدي هذا القصيد:

بأهل إسكندرية بعض ما بي	من الأحزان للثغر المصاب
أدار هواي ما قلبي بنايس	هيامي فوق أثباج الغباب
وهل ينسى أخو كرم وعهد	رحيق الراح يمزج بالرضاب؟
فإن تكن الكوارث آثمت	صبيّن عليك أسواط العذاب
فلن ينسى لك التاريخ عهدًا	ضحوك الوجه مرهوب الجناب

\*\*\*

حَمَاك الله يا دار التنادي	إلى الهيجاء أو دار التصابي
ألم تمرح بساحتك الجوازي	لَوَاعِبَ فِي جِمَى الأَسْدِ
ألم تُلقِي مع الأقدار يومًا	كتائب من لحاظٍ أو جراب؟

وكيف يطيبُ للدنيا وجودٌ  
وأيّن تجولُ أفراسُ المعالي؟  
إذا هُدِّدت ظلماً بالخرابِ؟  
وأيّن تصولُ أحلامُ الشبابِ؟

\*\*\*

عروسُ البحر، والدنيا سفينٌ  
أعندك أن دارَ المجدِ تنجو  
أعندك أن في الدنيا رياضاً  
عروسُ البحر، ما هذي الرزايا  
أكنت جنيت، والدنيا مجالٌ  
جمالِك فاتنٌ، والحسن ذنبٌ  
فما شكواك من ظلماءِ طالت  
ثُرُوعُ بالقواصفِ والضُّبابِ<sup>(١)</sup>  
على الأيامِ من كُربِ الصَّعابِ؟  
تصان من الأفاعيِ والذبابِ؟  
تُصبُّ على بنيك بلا حسابِ؟  
لمفروضِ الثوابِ أو العقابِ؟  
لأهلِ الحسنِ في شرعِ الذئابِ  
وتلك جنايةِ المجدِ اللبابِ؟

\*\*\*

عروسُ البحر، يا مهوى فتوني  
عُقلتُ بأرضك العزّاءِ عامّاً  
دخلتِك عانيّاً في أسرِ ليلِ  
فأقبلُ نورك الروحيِ يسري  
رأى العقّالِ أن نحيماً أسارى  
ويا مَغْنَى أمانِي العذابِ  
فكان أعزّ عامِ في شبابي<sup>(٢)</sup>  
أصمِّ القلبِ زنجيِّ الإهابِ  
إلى أرواحنا من كلِّ بابِ  
حياةَ السيفِ في سُذفِ القِرابِ<sup>(٣)</sup>

(١) القواصف: هي الرياح التي تثور في البحر. أما العواصف: فهي الرياح التي تثور في البر: (ألحان الخلود).

(٢) العزّاء: هي الأرض الصلبة، وكان موضع الاعتقال في بقعة جرداء بناحية «سيدي بشر» قبل أن تصبح تلك الناحية من ملاعب الصيف.

(٣) العقّال على وزن سجان: هو حارس المعتقلين. والسدف جمع سدفة بالضم: وهي الظلمة، والقِراب بكسر القاف: هو الغمد.

فلا ندري لوجه البحر لونا  
ولا نقتات من زاد الأمانى  
فهل سمع الشَّقِيَّ بما أفاءت  
هَدِيْزُ البحر كان يعجُّ عمداً  
وَحَبُّ الرمل صار لنا مهاداً  
فأمسى الاعتقال على اجتواه

\*\*\*

عزوس البحر، حدّثني شهودٌ  
فلا غَيْدَاءُ تخطرُ في جماءه  
ولا صبُّ خُتُورِ العهدِ يمشي  
ولا صهْبَاءُ يَحْسُوها بنوه  
إذا طافَتْ بهم هاموا فحُفُّوا  
وَأَمْسَوْا والكواكب في علاها  
سُلاَفُ صانها «باكوس» عما  
ألم يثقل على حُكَمَاءِ قومي

بأن الشَّطَّ صار إلى تباب  
كرقص البدر من خلف السحاب  
على جَنَابَتِهِ مَشِي الحُباب  
وقد قُبِسَتْ من الذهب المذاب  
لمقبول المجانة والدُّعَاب  
لهم أَسْلَابُ فتكٍ وانتهاب  
يشوبُ الراحَ من إثمٍ وعاب<sup>(١)</sup>  
وقد عاقرتها وِزْرُ اغْتِيَابِي؟

\*\*\*

أمير الشطِّ كنتُ فأين عهدي  
وأينَ رِمَالُهُ مني وكانَتْ

برغي الحسن في الشطِّ العُجاب  
مناسِكَ صَبُوتِي في كلِّ (آب)<sup>(٢)</sup>

(١) الاجتواء: البغض.

(٢) باكوس: هو إله الخمر عند اليونان.

(٣) آب: شهر أغسطس، وهو من أهم شهور الاصطيف.

إليها كان حَجِّي واعتماري  
فكيف أذوقُ للصبوات طعمًا  
وفيهما كان ختلي واختلابي  
وعن عرفاتها طال اجتجابي؟

\*\*\*

ندامى البحر، سوف أعود يومًا  
نشيدي في التصوف كان لحنًا  
سواي يرى الوجود إن اجتلاءً  
ويجلوه لوجداني وزوحي  
وهل كانت حياة الناس إلا  
عشقتُ البحرَ والصحراء عشقًا  
أطلُّ على الفضاء فتزدهيني  
وانظر للوجود فلا أراه  
لأطفئ ما بقلبي من لؤاب<sup>(١)</sup>  
نقلتُ صداه عن قَصف الغُباب  
سطورًا ثاويات في كتاب  
إذا ما شئتُ إظلالُ السحاب<sup>(٢)</sup>  
قلائد صاغها ربُّ الرباب<sup>(٣)</sup>  
به طال اندفاعي وانجذابي  
رحابٌ غارقاتٌ في رحاب  
سوى خمرٍ تُعاقزُ أو رُضاب<sup>(٤)</sup>

\*\*\*

أخلائي هنالك، حدِّثوني  
حديث (الثغر) وانتظروا إياي

(١) اللؤاب: العطش.

(٢) أجمل الشاعر في هذين البيتين معنى فصله في «ذكريات باريس» في بحث عنوانه «بين فصول الكتاب وآيات الوجود».

(٣) الرباب: هو ما دون السحاب؛ فالسحاب ربه، ورب السحاب هو البحر، ورب البحر هو الله. وللشاعر عقيدة صوفية تقوم على أساس «الحقيقة البحرية» وهي عقيدة لا يتسع لشرحها المجال؛ وقد تفتح أبوابًا من الجدل لا يطيقها أكثر الناس؛ لأنها تخالف ما اصطلى عليه الصوفية.

(٤) يريد الشاعر أن يقول: إنَّ الوجود كله جميل حتى ليحسبه رشفات من خمر أو رُضاب.

أفوق رُبوعه غامثٌ سماءَ  
وما القومُ الذين عَدُوا عليه  
أكانوا جِنَّةً ضُمَّا فعاثوا  
أكان (النسر) في التَّحْلِيْقِ أَذْنَى  
نِطَاحِ كُلِّهِ سَفَافَةٌ وَلَوْ  
مَوْجَّجَةٌ بِأَقْبَاسِ اللُّهَابِ<sup>(١)</sup>  
كعدوان الذباب على الشراب؟  
به عَيْثَ الأَرَاقِمِ بِالوِطَابِ<sup>(٢)</sup>  
إلى الإسفاف من ذاك (الغراب)؟  
ولو كَرِهَ المُصَانِعِ والمَحَابِي

\*\*\*

أحقُّ أن مَعْنَى (الشعر) أقوى  
فلا «النشاز» يسأل غير صاح  
«أبو شادي» أفاق، فَمَنْ بَشِيرِي  
وكيف يَعِيشُ رُوحٌ كان أنسي  
أكاتِمُ حَبَّةُ قَلْبِي وأمضي  
هو الدنيا: وقد جُنَّتْ فصاغت  
وأقفر من أحاديث الصحاب؟  
ولا «شيبوب» يحلم بالجواب؟  
برجع الأمن للشعر المهاب<sup>(٣)</sup>  
وإن ألف اللجاجة في الغضاب؟  
فأعلِنُ بُغْضَهُ عند العتاب  
رحيق هواه من شهدٍ وصاب

\*\*\*

(١) اللهاب بالضم: هو اللهب أو اللهب.

(٢) الأراقم: هي الحيات الرقط. والوطاب مفردها وطب: وهي أوعية اللبن، والحيات تحب اللبن إلى حد الجنون، والعرب يصفونها بالصمم ليبالغوا في قدرتها على الإيذاء؛ وهو الوصف الذي أضافه الشاعر إلى أولئك الجن العائنين.

(٣) المهاب بفتح الميم: هو المكان الذي يكثر فيه التهب والخوف. وإفاقة الدكتور أبي شادي تستحق التنويه، فقد سقطت قبلة على بعد خمسمائة متر من داره ولم يصب بسوء، وتلك أول مرة تظهر فيها كرامة «أبولون»!!

من الأحزان للشجر المُصاب  
 فؤادي في انصداعٍ وانشعاب  
 ليوم الوجدِ أو يوم الغلاب  
 فهم قوم اعتلاءٍ واصطخاب  
 من العادين أبناء القلاب<sup>(١)</sup>  
 مُديل البأس من وكر العقاب<sup>(٢)</sup>  
 تساق إليهم عُددُ الحراب؟  
 فهم خَلَفُ القساورة الصلاب<sup>(٣)</sup>  
 وقاح الوجه منزوع النقاب  
 به ظمأً إلى يوم الضراب

بأهل إسكندرية بعض ما بي  
 سمعتُ حديثَ نكبتهم فأمسى  
 ملائك من أديم الخلد صيغوا  
 أعزَّ البحرُ أنفسهم فعزوا  
 هُم الحرائس للوطن المفدى  
 فكيف تبدلوا وأدال منهم  
 تساق إليهم الأقوات، هلا  
 أغيشوهم بسيفٍ لا بيزاد  
 أمُدوهم، إذا شتتم، بجيش  
 فما حفظ الديار سوى حسام

\*\*\*

صريح لا يراوغ في الجواب  
 وهنَّ أذل من غار الضباب؟  
 جوانحه إلى مثوى الهوايي<sup>(٥)</sup>  
 ضياع التبر في جوف التراب

أجِب «عبد القوي»<sup>(٤)</sup> وأنت شهَم  
 أنت ترى «المخايح» وأقيات  
 وما شرف الفتى وقد استنامت  
 لنا ماضٍ نسيناهُ فضيغنا

(١) القلاب بضم القاف: داء يعصر القلب.

(٢) العقاب بضم العين: طائر من الجوارح.

(٣) القساورة: الأسود.

(٤) هو المهندس الأديب عبد القوي أحمد باشا وزير الوقاية المدنية.

(٥) الهوايي: أتربة القبور.

لقد كُنَّا، وكنا، ثم كنا  
 ركزنا الرعبَ في مُهج الضواري  
 لوادينا القوي عنتُ وُجوة  
 أَلَمْ نَدْفِنْ بوادينا قُزومًا  
 فكيف نُكولُنا عن ردع قوم  
 هُمُ ظننوا الكنانة زاد يوم  
 فإن فازوا فسوف نكون منهم  
 وسوف نظل نحن - كما فُطرنا -  
 عر كنا الدهر جيلًا بعد جيل  
 فما هُنَّا على الأقدار يومًا  
 أَلَمْ نُشْرِقْ على الشرق المعنى  
 ولولا جدنا في الشرق صارت  
 بنا وثقت شعوبٌ لم تواجه  
 بنا استهدت بصائر لم تُرضها  
 كدأبِكُمْ وقد مرنت نهائكم  
 أكان العلمُ في عالي سنائه

أداة الفتك من ظُفِرٍ وناب  
 فكيف تَوزنا مهجُ الذئاب؟  
 عززن بالانتساب والاكْتساب  
 أرادوا الشرب من أمواه (حايي)<sup>(١)</sup>  
 لثام البغي منكودي الإصاب<sup>(٢)</sup>  
 كظن النمل في نسف الهضاب  
 مكان البحر من لهب الضوابي<sup>(٣)</sup>  
 أباءة الضَّيم أحرار الرقاب  
 وكابِذنا الألوف من الصعاب  
 ولا أمست بوارقنا نوابي<sup>(٤)</sup>  
 فندفع عنه آصار الضباب<sup>(٥)</sup>  
 بقاءه العزاز إلى الذهاب  
 بروق الغرب إلا في ارتياب  
 خداعًا بالمواعيد الكذاب  
 على ستر الخيانة بالخلاب<sup>(٦)</sup>  
 ذريعة الاستراق والاستلاب

(١) حايي: هو اسم النيل عند قدماء المصريين، والحايي: هو الوهاب.

(٢) الإصاب مصدر أصاب: كالإقام مصدر أقام، وفيه إعلال بالحذف.

(٣) الضوابي: النيران.

(٤) البوارق: السيوف.

(٥) الآصار: الأثقال.

(٦) الخلاب بالكسر: هو الخداع.

أروني مئةً أسلفتُموها  
 طلائعُ كان علمُكم ليومٍ  
 ولم يكُ علمنا إلا نظيرًا  
 أنتم تُفتنون بما ملكتم  
 ولا نُزهي بأراءٍ صحاحٍ  
 فإن تخلد مآثرنا وتسلم  
 فذاك لأنها آثار قومٍ  
 لنا الخلدُ الذي لن ترزقوه  
 فخبثوا في المطامع كيف شئتم  
 وزودوا الأرض في شرقٍ وغربٍ  
 وصولوا آثمين ببناء حربٍ  
 فسوف تُرَوْنَ بعد مدى قصيرٍ

\*\*\*

بأهل إسكندريةً بعض ما بي  
 أتلك قيامةً قامت فدكت  
 فمن كهلٍ شديدٍ الرأي يمسي  
 ومن رشاً تصيرُهُ الرزايا

من الأحزان للشعر المصاب  
 حصون البأس من تلك  
 لوقع الهول مفقود الصواب  
 وقيدَ الشيب في شرخ الشباب<sup>(٤)</sup>

(١) العقاب: جمع عقبة بالتحريك، وهي الطريق الصعب في الجبل.

(٢) اليباب: الخراب.

(٣) الطوابي: القلاع، وهي كلمة تركية الأصل.

(٤) الوقيذ: المطعون.

ومن عذراء يلفظها جماها  
قوارع لم تقغ إلا بأرض  
فما آثام أهل (الثغر) حتى  
مضت زُمُرًا إلى الأرياف منهم  
فكيف استقبلوا - بعد ارتفاه -  
أمن بعد الحشايا ناعمات  
إلى جَلَوَاتِهِمْ فِي الصَّيْفِ كَانَتْ  
وَفِي دَارَاتِهِمْ كَانِ التَّنَادِي  
فَكَيْفَ مَضُوا حِيَازِي لَمْ يَثُوبُوا  
وَكَيْفَ غَدُوا بِهَذَا الصَّيْفِ صَزَعِي  
كَذَلِكَ الْعَيْشُ بِؤْسٍ بَعْدَ لَيْنٍ  
وَمَنْ عَشِقَ السُّلَاقَةَ فِي صِفَاها

\*\*\*

عروس البحر، نسرف إن رأينا  
وكيف وفي معاهدك الخوالي  
بكل محلّة وبكل أرض  
حياتك في المزاح وفي اللّعب<sup>(٤)</sup>  
تسابت العقول إلى الوثاب؟  
مآثر منك طيبة النصاب<sup>(٥)</sup>

(١) الحراب: المحاربة.

(٢) الرغاب بفتح الراء: الفسيح.

(٣) الصباب بضم الصاد: بقية الكأس. والرنق: الكدر.

(٤) اللّعب: الملاعبة.

(٥) النصاب: الأصل.

وما روما وآئينا إذا ما  
 منازَ العقل كنت بلا امتراء  
 بكى التاريخ من عهد لعهد  
 فهل كانت بدائعها لقوم  
 بَنَاكِ إسكندرٌ فيما بَنَاهُ  
 ولو أصغى أولو الألباب يوماً  
 لآمنَ فتيةٌ منهم برأى  
 وهل «فينوس» عند مُرَبِّيها  
 لـ«كيمي» أنت، يا دارَ التنادي

تبارى الفاخرون بالانتساب؟  
 ونازَ القلب كنت بلا ارتياب  
 مُصَابَ العلم في (دار الكتاب)<sup>(١)</sup>  
 أجنب عن مرابعك الرِّحَاب؟  
 كذلك قِيلَ رَجْمًا بالمغاب<sup>(٢)</sup>  
 لِهَمْسِ الوحي في تلك الرِّوَابِي  
 يَخَالُكَ صادقاً «بِكَرِ العُباب»  
 سوى «راقود» في أحلام  
 إلى الهيجاء أو دارَ التصابي<sup>(٤)</sup>

(١) دار الكتاب: هي مكتبة الإسكندرية المشهورة في التاريخ.

(٢) المغاب: هو الغيب، ومعناه الظن والتخمين.

(٣) يريد الشاعر أن يقول: إن الإسكندرية كانت موجودة قبل الإسكندر بأزمان طوال، وإنما سمي أحد أحيائها باسمه، فغلبت التسمية على مر الزمان، واسمها القديم راقود. وهنا التفت الشاعر التفاتة خيالية، فجعل «راقود» نظيرة «فينوس»؛ و«فينوس» هي ربة الجمال عند القدماء وقد ولدت على شاطئ البحر، وكذلك ولدت «راقود»، وذلك معنى قوله: إنها «بكر العباب». ومن المؤكد أن «راقود» هي أقدم المدائن البحرية؛ لأن طبيعة ذلك المكان من شواطئ مصر توجب أن يكون أهلاً للحضارة والعمران.

(٤) «كيمي»: هو اسم مصر عند أهلها القدماء، «كيمي»: معناه السواد، وسميت «كيمي» لغلبة هذا اللون على أرضها، ومن «كيمي» جاءت لفظة «الكيمياء» لشهرة المصريين بالتفوق في الاختبارات الكيميائية.

لـ«كيمي» أنت من أيام نوح توارثك ابنم عن خير آب<sup>(١)</sup>

\*\*\*

مضى عهد القياصر في انزعاج  
بلاذ لم تكن إلا مجالاً  
بجمر الثورة الحمراء يغذى  
وجاء الفتح فانقادوا لقوم  
هو الإسلام طهرهم فأضحوا  
فهل يدري المؤرخ كيف صاروا  
عليهم عول الإسلام فيما  
فأموا الغرب يحرسهم تقاهم  
وحلوا عادلين به كراماً  
فلما أن هوت شمس المعالي  
تقاطر أهلها يبغون حصناً

بأرض إسكندرية وانقلاب  
لمشبوب الصيال والاحتراب  
بنوها لا بزاد أو شراب  
مساكنهم بصهوات العراب<sup>(٢)</sup>  
كماء المزن في شعب اللصاب<sup>(٣)</sup>  
طلائع للجهاد وللغلاب؟  
أراد من المغاربة الصلاب  
وقد مشت الملائك في الركاب  
خلول الغيث بالبقع الجذاب  
بأندلس ولاذت بالحجاب  
يقيهم شر أيام التباب

(١) «الآب» بالمد: هو «الأب»؛ وهذا المد جاء لعلة صرفية هي تعويض الحرف المحذوف وهو الواو، وهو يعوض في لغة التخاطب بتضعيف الباء فقول النصارى «باسم الآب» صحيح من الوجهة اللغوية.

(٢) «العراب»: الخيل العربية، ومساكن العرب في أيام بأسهم كانت فوق صهوات الخيل.

(٣) «اللصاب» جمع لصب، بكسر اللام: وهو الشعب الضيق في الجبل، وهو يحفظ الماء من الأعداء.

إلى جفن الحمى بالشعر عادوا  
أتاريخًا يحبِّره قصيدي  
وما الشمس المضيئة إن حكمتها  
كما عاد الجراز إلى القراب<sup>(١)</sup>  
لماضي «الثغر» في عهد الشباب؟  
لرائها خيوط من لعاب؟<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

عليك إسكندريةُ أجَّ حزني  
إذا فكرتُ فيك غَلتُ دمائي  
ألا سيفٌ أجزدهُ وأمضي  
ألا جيشٌ قويُّ البطش ضار  
سأصمتُ كارهاً، والصمتُ حيناً  
فطار تجلدي وهوى صوابي<sup>(٣)</sup>  
وآذن جمرِ حقدِي بالتهاب  
لأدفع عنك عادية الذئاب؟  
يذيق عداك أكواب العذاب؟  
يُعَدُّ من البراعة في الجواب

أول أغسطس سنة ١٩٤١

\*\*\*

(١) الجراز بالضم: هو السيف القاطع، والشاعر يشير إلى حقيقة تاريخية؛ وهي أن فريقاً من الجيش الذي فتح إفريقية ثم دخل الأندلس كان من الإسكندرية، فلما غاب نجم الأندلس لأذ كثير من أهلها بالإسكندرية، فكثير من العائلات بالشعر يرجعون إلى أصول أندلسية ومغربية، وذلك سر الشراسة الغالبة على طباع الإسكندريين.

(٢) لعاب الشمس: شعاع ينحدر من السماء عند الظهيرة، والمراد أن التاريخ لا يصور الحقائق إلا بمقدار ما يصور اللعاب حقيقة الشمس.

(٣) أجَّ الحزن: استعر واضطرم.

## مع الدكتور طه حسين<sup>(١)</sup>

المعروف أن بيني وبين الدكتور طه «ما صنع الحداد» وإن كنت أجهل المراد من هذه العبارة المصرية، ولكن ما صنع الحداد لا يمنع من لقاء الدكتور طه حسين؛ لأنه جاري بوزارة المعارف، والجيران يتلاقون كارهين أو طائعين، وفي ذلك التلاقي يجري الحديث حول محصول الحركة الأدبية في هذه الأيام، وهو يقرأ جميع ما تنشر المجلات ليعرف إلى أي مدى ينتهي جموح بعض الكاتبين!

- أنت يا دكتور زكي تتجاهل أن الدنيا في حرب.
- وماذا يصنع الكاتب في أيام الحرب، يا سيدي الدكتور؟
- يكتب ثم يطوي ما يكتب إلى أن تجيء أيام السلام.
- وإذا نشر ما كتب؟
- يعاقب بالصمت.
- ولكن الكتابات الأدبية كالورد الصحيح، وهو يُطلب في جميع الأوقات.
- هنالك أوقات تكون فيها الصحة ضربًا من الاعتلال، ويكون الفوز لأهل الأمراض.

- وهل وصلنا إلى هذه الغاية يا سيدي الدكتور؟
- لم نصل إلى هذه الغاية، ولكنني أخشى عواقب هذه الحال.
- وما هذه الحال؟
- هي ضعف الأعصاب عند جميع الناس، بحيث يجوز الضجر من أجمل الأشياء وأشرف المعاني.
- ولكن المفكر مسئول أمام قرائه في كل وقت، وفيهم من يجهل أن الدنيا في حرب.
- من واجب المفكر أن يعلم قراءه ما يجهلون.
- وهذا ما أصنع يا سيدي الدكتور.
- هل علمتهم أن الدنيا في حرب؟
- قصصت عليهم قصة الطائر الغريب.
- وما قصة الطائر الغريب؟
- هو طائر يساير الأنوار المبتوثة فوق الشواطئ.
- لأي غرض؟
- ليعرف مسابح الأسماك فيهدبها سواء السبيل.
- الناس يقولون غير ذلك!

- وماذا يقولون؟

- يقولون: إن الطائر يضع المصاييح ليجتذب الأسماك إليه.

- وماذا أصنع إذا كانت الطبيعة ترى النور سر الجاذبية؟

- ومن أجل هذا تطالب بحرية الفكر والرأي؟

- هو ذلك!

- اكنم هذا الحديث يا دكتور زكي، ولا تخبر أحدًا بأنك حاورتني في الأنوار والظلمات.

- سمعًا وطاعة، يا سيدي الدكتور، فلن أنشر هذا الحديث إلا بعد انتهاء الحرب.

\*\*\*

امتحان جديد:

تقوم الشواهد في كل يوم على أن الحكم للسيف والمدفع، وأن المعاني الروحية في سبيل الزوال، فكيف نلقى القراء في حدود ما عودناهم لعهد السلام؟ وكيف نناضل لحفظ سلطان الرأي في زمن تضععت سلطنة الرغيف؟

هل نترك معالجة المشكلات اليومية وننصرف إلى معالجة المشكلات التاريخية؟

هل نتحدث عن جبل واق الواق في أساطير الأولين؟ لا هذا ولا ذاك،  
فسترون كيف نخرج من امتحان هذا الزمان بأمان.

\*\*\*

يقال ويقال:

يقال: إن المؤلفات الأدبية ظفرت في هذه الأيام برواج لم تعرفه من  
قبل؛ ويقال: إن السبب في هذا الرواج هو نفرة العقول من سخف  
الدعايات الأجنبية.

ويقال: إن الحرب علمت المصريين أشياء وأشياء، ولكنها غفلت عن  
تعليمهم معنى التضامن الوطني، فجهلوا التعاون في توفير الأقوات.

ويقال: إن وزارة الشؤون الاجتماعية قضت أعوامًا في تعريف الصناع  
والزراع بأنهم تعساء، ولم تعلمهم كيف يدفعون التعاسة بشرف النضال في  
المطالب الحيوية.

وسمعت ثم سمعت أن الدولة ستحرم الرياء الاجتماعي تحريمًا قاطعًا.  
وحدثني من أثق بصدق روايته أن الميسر سيكون من المحرّمات، وأن  
السهر في المنازل سيُمنع بعد صلاة العشاء.

صلاة العشاء؟... صلاة العشاء؟

يظهر أنني انتقلت إلى الحديث عن أهواء التاريخ!

\*\*\*

## موقعة العلمين<sup>(١)</sup>

العلمين: اسم بقعة تقع في الطريق بين الإسكندرية ومرسى مطروح، وهي مثنى علم، وقد صارت بفضل حرب الصحراء الغربية أشهر من نار على علم أو على علمين!

والذي يراجع أخبار الصيال بين قوات الحلفاء وقوات المحور في الصحراء يعرف أن تلك القوات لم تقف وقفة أطول من وقفها في العلمين، فهل كانت المقادير أرادت أن يكون لتلك التسمية هذا المصير فتكون تلك البقعة مكان الصراع بين العلم المهاجم والعلم المدافع؟

اللهم حوّلنا ولا علينا!

\*\*\*

(١) مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٤٢/٧/٢٠.

ألوان الموت<sup>(١)</sup>

لك أن تقول: ألوان الموت، كما تقول: ألوان الطعام، أصناف الشراب، ومن حَقِّك أن تختار لون الموت؛ لأنه فنٌّ من الفنون، أو صنْفٌ من الصنوف، أو «ضربٌ» من الضروب، ولعل من واجبك أن تفكر في اختيار لون الموت؛ لأن ذلك يشهد بأنك من الأحياء. وهل يفاضل المرء بين لون ولون إلا وهو في حيوية ذوقية أو روحية تضيفه إلى أكابر الفنانين؟

ولتوضيح هذا المعنى أسوق الحادثة الآتية، وقد وقعت في مساء اليوم السادس من هذا الشهر الميمون:

قُبيل الغروب هبَّت عاصمة عنيفة، عاصفةٌ كادت تنقل إلى داري جميع رمال الصحراء، جزاءً بما صنعتُ من التغني بإشراف داري على الصحراء!

وفي ثورة تلك العاصفة يترنم الهتَّاف، فأسمع صوت المسيو دي كومنين<sup>(٢)</sup> يدعوني إلى سهرة تدور فيها أكواب الحديث، وهو لا يقدم لأضيافه غير أكواب الحديث؛ لأن العقل نهاه عن الشراب قبل أن ينهائه الطيب.

(١) أكتب هذه الكلمة إجابة لاقتراح الأستاذ إبراهيم والي.

(٢) المسيو دي كومنين هو رئيس البعثة العلمانية الفرنسية في مصر... وكان مديرًا لمدرسة الليسية الفرنسية المصرية بمصر الجديدة أيام زكي مبارك.

وما كادت العاصفة تسكن حتى سلكتُ الطريق إلى ذلك الصديق، وهو طريقٌ لا يسلكه عابر في ليلة ظلماء إلا إذا كان على ميعاد مع حبيب.

كان المسيو دي كومنين في توحد الليث، فقد قضت ظلمات الأيام الأخيرة بأن يقرّ الناس في بيوتهم، فلا يسمر صديق مع صديق... ولا تسأل كيف طابت نفسي حين عرفتُ أنني السмир الوحيد في ذلك المساء، مع رجلٍ صيغَ روحه من لباب الضياء.

كانت غابة الليسيه في تلك الليلة تكابد الشق إلى من يتنقل بين أشجارها من وقت إلى وقت؛ ليُشعرها بأن في الوجود أرواحاً لم تشغلها مزعجات الحوادث عن الاستماع للأغاريذ المطوية في ضمير الحفيف... وهل تصمت أشجار مصر عن التناجي بالحفيف في أي زمان؟

تحدثنا بجانب كل شجرة، وسلمنا على كل مكان، حتى المكان الذي أوصى المسيو دي كومنين بأن يدفن فيه، بعد العمر الطويل العريض.

وطال الحديث حتى استغرق أكثر من خمس ساعات، فاستأذنت في الانصراف؛ بعد أن شكرت للمسيو دي كومنين لطفه البالغ في إمتاع روحي وعقلي بذلك الحديث.

ويهتف هذا الصديق على السائق ليوصلني بالسيارة إلى داري، فلا يجده، وينادي الحارس ليصل جناحي بضع خطوات، فيعرف أنه يربط في ناحية نائية، فيعلن أسفه على أن أسير وحدي في ذلك الظلام المحفوف بالحتوف، ولكنني أطمئنه فأقول: إنني لا أعرف ولا أصدق أن في الدنيا رجلاً أقوى مني، فليجرب اللصوص حظهم في مصاولتي، إن كان في

«مصر الجديدة» لصوص غير سُراق القلوب، وأنا قد نجوت من المعاطب  
الوجدانية في مصر الجديدة، فما خوفي على حبيبي وقد نجا قلبي؟!

كان الطريق موحشًا أعنف الإيحاش، وكان الليل كأنه الليل!

طاخ، طاخ، طاخ!

والتفت فإذا المدافع تنطلق من كل صوب، ولم يسبقها نذيرٌ من صفارة  
أو بوق، وانظر فأرى لهيها ودخانها يثوران فوق رأسي، فأسرع بالدخول  
في بيت بلا أبواب، بيت لا يزال في مهد البناء، والمصريون لا يكفون عن  
البناء ولو ارتفعت تكاليفه إلى عشرات الأضعاف.

طق، طق، طق!

والتفت مرة ثانية فأرى الأخشاب التي تحمل السقف مهددة بالسقوط،  
فأقفز إلى الفضاء، وقد اخترت لون الموت، وللموت ألوان: رأيت الموت  
بشظية مدفع أفضل من الموت بسقوط تخشبية، كما أن الموت بالبطنة  
أفضل من الموت بالجوع!

ثم نظرت فرأيت الضرب ابتعد، فهو ضرب طيارة إنجليزية تطارد طيارة  
ألمانية، وقد أفلح الضرب فسقطت الطيارة المطاردة عند الكيلو رقم ٣  
بطريق السويس، وكفى الله رأسي شر الهلاك، وضاعت الفرصة على  
أعدائي، فلم يحبروا المقالات الطوال في: «مصرع الملاك الأديبي»:  
والمستमित لا يموت، كما قال الحكماء!!

أفي هذه الأيام نقرأ ونكُتب، ونحاسب هذا الشاعر، ونصاول ذلك

الكاتب؟

نعم، ثم نعم... فليحاول الدهر بأحداثه وخطوبه زعزعة الفكر الثاقب  
والقلم البليغ!

\*\*\*

obeykandi.com

## النور أسرع من الضجيج<sup>(١)</sup>

أضاءت على حين غفلة أضواء آفاق مصر الجديدة، وأضاءت ثم أضاءت؟ فقلت له: حتى هذه اللحظة أطلقت ثلاثة مدافع؛ فقال: ومن أين عرفت؟ فقلت: من هذه الومضات؛ فقال: ولكنني لم أسمع ضجيج المدافع؛ فقلت: ستسمع بعد لحظات، وستؤمن بأن النور يسبق الضجيج.

فيا ناشدي الشهرة باسم الأدب، تذكروا ثم تذكروا... تذكروا أن من يواجه الأدب والحياة بلا قلب وبلا روح وبلا نور، فلن يكون له من مجد الأدب وشرف الحياة نصيب ولا خلاق.

النور أسرع من الضجيج؛ لأنه أرق وألطف، وأقوى وأغلب، فاستعينوا بحرارة أرواحكم، قبل أن تستعينوا بجهارة أصواتكم، واعلموا أن النور وليد النار، ون جوهر الفكر المتألق فيه أصالة حيوية لا يدرك مداها غير أرباب القلوب.

ومن أجل هذا كان الاضطهاد أعجز من أن يخمد حيوية الأديب؛ لأن الأدب نور، ولأن الاضطهاد ضجيج، والنور أقوى وأسرع من الضجيج.

ثم ماذا؟

إن وضعت أصابعك في أذنك، فقد حجبت عن سمعك ما تحب وما لا تحب من الأصوات، وإن أغمضت عينيك، ثم عصبتها بمنديل

(١) مجلة الرسالة: ٤٢/٧/٢٧، العدد ٤٧٣.

سميك، فستحس النور عيناك، برغم ذلك الحجاب، أو برغم ذينك  
الحجابيين؛ لأن النور أقوى وأسرع من الضجيج.

فيا أعداء الأدب، متى تعقلون؟!

سنضيء قبوركم إن اعتصمتم منا بظلمات القبور؛ لأن من واجب النور  
أن يمزق الظلمات... وسوف تعلمون!

محمد زكي مبارك

العدد: ٤٧٣، مجلة الرسالة، ١٩٤٢/٧/٢٧

\*\*\*

## الحديث ذو شجون

### مكانة الأديب في الجهاد<sup>(١)</sup>

اقترح أحد النواب المحترمين إحياء ذكرى «شوقي» بإقامة تمثال له في أحد شوارع القاهرة، وتلك التفاتة لطيفة تدل على قيمة الشعر في أنفس بعض النواب.

ولكنَّ أديبًا فاضلاً تعقب هذا الاقتراح في جريدة (الدستور) فقال: يجب أولاً إقامة تمثال لمحمد فريد، وتمثال لمحمد عبده، وتمثال لقاسم أمين، قبل أن يقام تمثال لأحمد شوقي أو حافظ إبراهيم.

ولا بأس بهذا الكلام، ولكن الأديب الفاضل علَّله فقال: نحن في عصر السيادة فيه للشجاعة والبأس، والعبادة فيه للبطولة والأبطال، لا للفن والجمال، وكل مقتحم ميداناً، وذاك سوراً، ومنتزع نصرًا، مقدّم على من يجلس فوق رابية آمنة؛ ليرسل من قيثارته ألحاناً مشجية.

ومعنى هذا التعليل أن أمثال محمد عبده ومحمد فريد كانوا جماعة من المجاهدين، وأن أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم كانوا جماعة من المغنين!

ومن يعيش في مصر ير العجب، وإلا فكيف يجوز القول بأن صورة الشاعر هي صورة «من يجلس فوق رابية آمنة؛ ليرسل من قيثارته ألحاناً

(١) مجلة الرسالة: العدد ٤٨٢ بتاريخ ١٩٤٢/٩/٢٨.

مشجية؟ وكيف يجوز القول بأن الشعراء ليسوا إلا جماعة يسبحون للفرن والجمال، ولا صلة لهم بالبطولة والأبطال؟

إن هذا الناقد لا يعرف كيف يحيا الشعراء، ولا يفهم من الشعر إلا أنه غناء، والأدب عنده متعة ذوقية يلهو بها الفارغون من أهل العبث والمجون.

فمتى يعرف أهل مصر أن حامل القلم هو الوطني الأول، والمجاهد الأول، وأن معاني البطولة تعتلج في صدره قبل أن تعتلج في صدور القادة والزعماء؟

وما أساس البطولة الحقيقية عند أمثال: محمد فريد ومحمد عبده وقاسم أمين؟

أساسها الفكر والبيان، ويجب حتمًا أن نضيف هؤلاء إلى الأدباء قبل أن نعددهم زعماء، فما ارتفعوا إلا بالفكر المشرق والبيان الجميل.

وحكاية ذلك الأسوار واقتحام الميادين وانتزاع النصر تحتاج إلى شرح:

فهل من الحق أن الأديب لا يدك أسوارًا ولا يقتحم ميادين؟

إن الأديب يقضي عُمره في جهاد ونضال وعراك مع الدنيا والناس، ومع الأوهام والأباطيل والأضاليل، وما شرِّق مشرِّق أو غرب مغرب في دعوة وطنية أو اجتماعية إلا على هدى من وحي الأديب؛ ولا استبسل جبان، أو استقتل شجاع، إلا بتحريض من عبارة فاه بها شاعرًا أو كاتبًا أو خطيب.

في أعقاب الحرب الماضية ظهر كتابٌ فرنسي اسمه: La Barbarie All وهو كتابٌ أقيم على أساس القول بأن الوحشية الألمانية ترجع إلى إichاء من شعراء الألمان ومفكريهم في القرن التاسع عشر، وأن السيوف تتلقى الوحي عن الأقلام في تلك البلاد.

وقيل هذه القولة الفرنسية في تعليل الوحشية الألمانية، قال أسلافنا منذ أزمان طوال: إن أبياتاً من شعر عمر بن أبي ربيعة نقلت قلب هارون الرشيد من مكان إلى مكان؛ فصنع بالبرامكة ما دونه التاريخ بإسهاب.

والى الأدب العربي يرجع الفضل في تأريث البطولة العربية، وكذلك حظ جميع الآداب في جميع الشعوب.

حين تزاور الرؤساء من الإنجليز والأمريكان بعد انتصار الحلفاء في الحرب الماضية لم يجدوا عبارة تفصح عن الألفة بين الأمتين أفضل من العبارة التي تقول: بأن لغة شكسبير هي الرباط الوثيق بين الإنجليز والأمريكان.

فهل سمعتم أن شكسبير دك أسوازا واقتحم ميادين؟

ومنذ أسبوع نقلت البرقيات أن المسيو هريو رد وسام «اللجيون دونير» إلى المشير بيتان<sup>(١)</sup> - كان تلقاه من كليمنصو العظيم - لأن حكومة فيشي منحت هذا الوسام لضابطين يحاربان في صفوف الألمان، فعمن تلقى هريو هذا الوحي الرائع، الوحي الذي يأبى على الضمير الفرنسي أن

(١) المشير باللغة العربية: هو المارشال باللغة الفرنسية.

يستبقي وساقماً يُهدى إلى من يحارب في صفوف الأعداء، ولو أصبحوا بحكم الضرورة حلفاء؟

هذه التفاتة أدبية لا سياسية، والأدب يوحى معاني تنفر منها السياسة، بحيث يجوز الحكم بأن الأدباء أشجع من السياسيين، وما مُدح سعد زغلول بأفضل من النص على أنه كان خطيباً وطنياً لا سياسياً، كما قال الأستاذ كامل بك سليم.

التفاته المسيو هريو التفاته أديب، وكان هريو في مطلع حياته أستاذ الأدب الفرنسي بجامعة ليون، وكان يعاب عليه الإسراف في شرح أصول الغزل والتشبيب، فلم يكن يرتاد محاضراته بجامعة ليون غير عرائس ليون.

ثم تحولت العواطف الوجدانية عند المسيو هريو إلى عواطف وطنية، وهل كانت خطبه في مجلس النواب الفرنسي إلا روائع من الأدب المضمخ بعبير الروح؟

ولم يقف الأدب بالمسيو هريو عند الوطنية المحلية، بل سما به إلى رعاية اللغة الفرنسية في البلاد الأجنبية، فرأس جمعية المسيو لايبك رياسة حقيقية لا صورية، وأمدّها بما استطاع من الوقت والمال.

عتب عليه المسيو بينار في المؤتمر الذي عُقد في يولييه سنة ١٩٣٣ خلف الوعد بحضور افتتاح الليسيه فرانسيه في حلب، فاعتذر بأسلوب لن أنسى وقعه في نفسي، اعتذر بأنه يبيت في القطار ثلاث ليال من كل أسبوع، ثم أعلن استعداده لدفع النفقات التي توجبها الدعوة لنشر اللغة الفرنسية في البلاد الأجنبية؛ فهل تصدر هذه الأريحية إلا عن أديب؟

وفي ذلك اليوم دعوته لزيارة القاهرة فقال في حماسة: سنلتقي هنالك يا صديقي.

وقد برّ بالوعد فحضر لافتتاح الليسيه فرانسيه بمصر الجديدة في سنة ١٩٣٨؛ ولكنني ما رأيته ولا رأي، فقد كنت في بغداد، عليها أطيب التحيات.

وخلاصة القول: إن الأدب عماد الوطنية، ولا قيمة لوطن ليس فيه أدباء.

وإذا تحذلق متحذلق فادعى أن الأدباء لا يحسنون غير التغريد فوق أفنان الجمال، أجنباه قائلين بعزة وخيلاء:

إن الجمال هو أعظم نعم الله في هذا الوجود، ولا يعيب التغني بالجمال غير مرضي الأذواق والقلوب... الأمم العظيمة هي التي تتغنى بالجمال، كما يصنع الإنجليز والألمان، وكما صنع العرب في شباب الزمان... فمن بدا له أن يغض من شعرائنا؛ لأنهم يتحدثون عن الجمال، فليبادر باستشارة أحد الأطباء.

\*\*\*

## بين الحب والحرب

كان الصحفي الكبير الأستاذ عبد الحلیم الغمراوي سكرتير تحرير جريدة المصري، فطلبني تليفونيًا في الليلة التي أعلنت فيها الهدنة في الحرب الأخيرة ليقول: أسعفني بقصيدة ننشرها غدًا في «المصري» فقد اعتذر الشاعر علي محمود طه، ولم يبق أمامي غيرك، وستظهر جريدة الأهرام غدًا وفيها قصيدة للأستاذ علي الجارم، ونحن مع الأهرام في منافسة صحفية.

فقلت: إن الخبر وصل إليّ قبل أن يصل إليك، وقد لمحتة لمحا قبل شهرين، وأنا في مكتب الأستاذ أنطون باشا الجميل، فقد كان الجارم بك سمع أن موعد الهدنة قريب فنظم قصيدة عن الهدنة وأودعها عند رئيس تحرير الأهرام لتتنشر في صباح يوم الهدنة، وليقال: إن الوحي نزل عليه بالليل!

\*\*\*

ثم ... ثم ماذا؟

ثم امتطيت قطار الإسكندرية وأنا حزين؛ لأنظم القصيدة في المكان الذي اعتدى فيه الإنجليز على كرامة الإسكندرية يوم الاحتلال.

وصلتُ إلى الإسكندرية مع الليل، وهداني قلبي إلى المكان الحزين، وتذكرت أن الجيش البريطاني في مصر كان يقيم احتفالاً في كل سنة

بذكرى ضرب الإسكندرية، ولم ينته إلا بعد أن نهيته بمقال نشرته في  
جريدة البلاغ سنة ١٩٣٣.

\*\*\*

ليت أيامي تعود!

ليت أيامي تعود!

أكاد أتذكر أنني دخلت الإسكندرية أول مرة في قطار الليل مع فريق  
من كرام المعتقلين، وأكاد أتذكر أيامي في الاعتقال، أكاد أتذكر أنني  
رفضت جميع الشروط التي عرضها رئيس المعسكر البريطاني، وهي  
ملخصة في كلمة وجيزة: هي أن أكون صديق بريطانيا العظمى.

فكان جوابي أن العظمة لله وحده.

ويشهد جميع من صاحبوني في معتقل «سيدي بشر» أنني كنت آخر  
من بقي في المعتقل.

ورأى الضباط الإنجليز أن من حماقة أن يشغلوا أنفسهم بأسير له  
ضمير، فأطلقوا سراحي، والإنجليز لهم ضمائر في القليل من الأحيان!

\*\*\*

خرجتُ وما أدري كيف خرجت.

كان يجب أن أمرَّ على محافظ الإسكندرية، وهو يومذاك صاحب السعادة حسن باشا عبد الرازق، شقيق الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق.

قال الباشا: أنا أتذكر أنني عرفتك قبل هذا اليوم.

فقلت: وأنا أيضًا أتذكر أنني عرفتك قبل هذا اليوم.

فقال الباشا: ما رأيك في الشيخ عبد المجيد اللبان؟

فقلت: من قال لا أدري فقد أجاب.

فقال الباشا: أنا أخرجته من المعتقل ولم يحفظ جميلي.

\*\*\*

كان حسن باشا رجلاً أريحي الروح، وقد مات شهيداً في سبيل حرية الرأي، قتله جماعة من الأشرار على باب جريدة السياسة، وكانت في المكان الذي تقوم فيه اليوم «دار الهلال».

قتله قاتلوه لأنه كان يناهض سعد باشا زغلول، فبكى عليه الدكتور طه حسين والأستاذ توفيق دياب بمقالات حرار.

ماذا أريد أن أقول؟

أقول: إنني خرجت ظمآن إلى الحرية بعد أن قدم المحافظ تذكرة سفر من الإسكندرية إلى أشمون... والحرية في ذلك الوقت هي أن أזור الأستاذ محمد الهياوي في جريدة «الأمة» والأستاذ عبد القادر حمزة في جريدة «الأهالي».

ثم سافرت ولم أر البحر، فقد سمعت هديره واكتفيت بما سمعت، كالذي رأيتموه في قصيدة «دار المجد والوجد».

\*\*\*

ثم دارت الأيام على غير ما أريد، فرأيتني بعد ثلاثين سنة أقف نائحا على الإسكندرية وقد أزعجها الألمان والطيّان بقنابل دمرت منها ما دمرت، ولكنها بفضل الله بقيت خالدة على الزمان.

كنت أفتش المدارس الأجنبية بالإسكندرية أيام الغارات، فلم أتردد لحظة في أداء الواجب، ولم أنكص على عقبي كما نكص بعض المفتشين، ولم أخف كما خاف وزير المعارف واسمه «فلان».

\*\*\*

في ظلال تلك الذكريات نظمت قصيدة «بين الحب والحرب» لتشرها جريدة «المصري» وليقول الأستاذ عبد الحليم الغمراوي ما نُصِّه بالحرف:

«أهدى إلينا الكاتب الألمعي، والشاعر العربي، الدكتور زكي مبارك قصيدة رائعة، ضمّت إلى قوة المعنى دقة المبنى، وبذلك جمعت فأوعت، ونحن نزفها هدية إلى القراء».

\*\*\*

إن القصيدة التي أعجب بها الأستاذ عبد الحلیم الغمراوي لم تعجب الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف، فكتب في مجلة الصباح كلمة «لطيفة» قال فيها: إنه لم يفهم شيئاً من القصيدة، ولعل ذلك يرجع إلى أن اسمه «فهمي».

أمّا الأستاذ عباس الأسواني - وأنا أتنبأ له بمستقبل جميل - فقد أعجبه الأبيات الأولى، ولم يفهم ما أريد بعد تلك الأبيات الجميلات... فماذا أريد؟

في القصيدة تلميح إلى ضرب الإسكندرية بالمدافع ليلة الاحتلال، وفي «التلميح» ما يُعني عن التصريح، وقد أخفيت مرادي عن الأستاذ الغمراوي، ولو أنني أفصحت له عما أريد لرفض نشر القصيدة؛ لأن سيف الأحكام العرفية كان يتوعد أحرار الرجال مع أنه سيف مفلول، وما كنت أريد أن تغلق جريدة «المصري» من أجل هذه القصيدة الفريدة.

أزرق العين...

من هو أزرق العين؟

غاب هذا المعنى عن فريق من القراء، فليعرفوا اليوم أنه «الإنجليزي» الذي أدبته تأديباً فترك الاحتفال بذكرى ضرب الإسكندرية الغالية.

\*\*\*

جمال الجمال:

بعد ظهور القصيدة لقيني أخي في الأدب وفي الحب الأستاذ أحمد الصاوي محمد، وفي معيته الأستاذ توفيق الحكيم فقال: أعجبني قولك: «يا جمال الجمال».

أحمد الصاوي محمد...!!

من هو هذا الصاوي؟

أكاد أتوهم أننا كنا غربيين في باريس.

وأكاد أتوهم أنه كان تلميذي في اللغة الفرنسية يوم كان يقيم بحارة «الصالحية»... Le passé est mort... الماضي مات...

ولكنه أحيانا من الحياة، ومن حياة الحياة، إن الصاوي هو الكاتب الوحيد الذي لم يكتب حرفاً واحداً في مناوشتي، مع أنني هجمت عليه مرة أو مرتين في جريدة البلاغ قبل سنين قصار أو طوال.

إن الماضي مات، ومات، ثم مات!

ولكن شاعراً لم يقرأ هذه القصيدة وهو الأستاذ كامل الشناوي واسمه الصحيح مصطفى كامل، كأنه وُلد يوم وفاة الزعيم الوطني مصطفى كامل.

رأيت هذا الفتى أول مرة في بيت الأستاذ زكي طليمات، وهما يأكلان الفسيخ متربعين على البساط، فرفضت الدعوة لأنني كنت قرأت كتاباً بعنوان «ألف سيخ في عين من أحل الفسيخ».

وما كنت أنتظر أن يصير هذان الفتيان إلى ما صارا إليه، فالأستاذ كامل الشناوي صار من كرام الكاتبين، والأستاذ زكي طليمات صار عميد المعهد العالي لفن التمثيل.

في هذه اللحظة - وأنا أكتب مقدمة القصيدة - يهتف الهتاف لأسمع: أنا محمد الشافعي البنا وسأحضر إليك ومعى طعام وشراب.

تعال: يا شافعي، تعال.

حضر الشافعي ومعهُ طعام وشراب، كأنه يتوهم أنني جوعان وظمآن على نحو ما كنت في أيام الاعتقال. أنا أعز هذا الأديب المفضل وهو يجمع بين مزيتين عظيمتين: صباحة الوجه، وطهارة الوجدان.

إنه يستريح إليّ بصورة عجيبة، ولا يطيب له الوقت إلا إن كان معي، ولعله يريد أن يتذكر شقاءنا في غياهب الاعتقال.

والمودة التي بيني وبينه لها أصل أصيل، فقد كنا في أيام الاعتقال على مذهبين مختلفين، كان هو يتحزب للوفد المصري، وكنت أنا أتشيع للحزب الوطني، ولكننا لم ندخل في أي جدال سياسي، فزادت مودتنا صفاء إلى صفاء.

\*\*\*

دخلت إسكندرية أول مرة وأنا «أسير حرب» وهو اللقب الذي خلعه عليّ الإنجليز، والورقة التي تؤيد ذلك تحت يدي وهي البرهان على ما أراد الإنجليز أن يصنعوه في شراء ضميري، ولم أسمح لأحد بالتفكير في شراء ضميري، فالحياة أهون من أن تباع فيها ضمائر الرجال.

أكتفي بهذا التمهيد في تهية الجو الذي يحيط بالقصيدة، وإنها لقصيدة  
قبستها من نور القلب ونار الفؤاد.

\*\*\*

ما على الغادرين نسكب دمعا  
غَرَّهم عطفنا عليهم فظنوا  
لا تعودوا، ولا تمثوا علينا  
سوف نصحوا، وكل نشوة حب  
إن فجعنا بصدِّهم والفراق  
أن هجرانهم مريز المذاق  
بالذي تمنحون يوم التلاقي  
سوف تُودي بها الليالي البواقي

\*\*\*

حبُّكم أنجبتَه أيام حربٍ  
لا يصون الحليمُ فيها نهاء  
حبُّكم صيغٌ من أمانٍ وخوفٍ  
حبكم خدعة السلام أشاعوا  
صبيحها في سناه ليلٌ بهيمٌ  
ساحة الحرب ليس فيها حليم  
فهو نارٌ يهفو عليها النسيم  
قبل يومين أنها «تسليم»

\*\*\*

كان ما كان وانقضت صبوات  
كان عهد الهوى وثيقا فأودی  
قد سكبنا الدمع العزيز عليكم  
أدعني إن سكبها في غرام  
ثاراتٌ في إثرها صبوات  
بوثق الوفاء هذا الشَّتات  
وعلى القبر تُسكب العبرات  
فهي في شِزعة الهوى صلوات

\*\*\*

أتروني عرفت ما كان منكم  
إن يومي بذلك «الثغر» يوم  
مَطَّرْ هاطلٌ وبأس شديد  
وقصيدي في عتبكم تلميح  
أنا فيه مقاتلٌ وجريح  
وقتالٌ ومدمعٌ مسفوح

لن تروني أموت، ما مات قلبٌ صادقٌ في الهوى، ولا مات روح

\*\*\*

كذبت ما سمعت من صدق عهدي إن أكن في هواك أخلفت وعدًا خاتل أنت، فاحترس من عقابي محتتي فيك، والجروح قصاص

\*\*\*

ليلة الثغر ليلةً لك ربثني كلما قلت غاب عني دجاها أعين الغيد لا تروم سلامًا باطل باطل حديث أناس

\*\*\*

أي عهد ترى وعندك أني ليلة «الثغر» أفقدتني رشادي لن تراني إلا غريمًا أئيمًا لا تحاول ضلالةً في غرامي

\*\*\*

أعلن الصلح واطمأنت سيوف واستطار الهوى فأعلن حربًا حزبتنا حلم تقف لميحة طرف كل حرب لها بشائر صلح ظلمات إلى حمى الأغماد بين سود العيون والأكباد من قديم العصور والأباد غير حرب سعيها في فؤادي

بك يا سُهد أعين الرقباءِ  
كالخيال المكنون في الصهباءِ  
في عذابي ولوعتي وعنائي  
من فُضُول العَدَّال والسفهاءِ

أنت، من أنت؟ لا أسميك رفقا  
أنت في خاطري خيال لطيف  
لا تَحَلْ أنني جفوتك زهدا  
إنني قد كتمت حبك خوفا

\*\*\*

أين صلحُ العيون صلحُ القلوبِ؟  
إن حرب الهوى أمضُ الحروبِ  
يصطليه متيِّمٌ من حبيبِ  
إن صدق الغرام بعض ذُنوبي

أعلن الصلحُ بين قومٍ وقومِ  
دارت الحربُ بين قلبي وحبِّي  
كل خطبٍ يهون إلا خداعا  
أنا أذنبتُ في اشتياقي إليكم

\*\*\*

يلبسون الغروبِ ثوب الشروقِ  
كاشتمال العدو ثوب الصديقِ  
سقطت سقطةُ الهوى في طريقي  
تؤذِن الروحَ بالتهاب الحريقِ

أقبل الصلحُ، هكذا قال ناشِ  
صلحُهم خاتلٌ ضميرًا وعينًا  
إن يخونوا، فما خيانةُ روحِ  
مكرهم في هواي شارةُ حربِ

\*\*\*

هي رجمُ الظنون بعد الظنون  
إنهم صوِّروك نار شجوني  
حائز الروح في شعاب الحنين  
غاض دمعي وغاب عني أنيني

أنت، من أنت؟ والسياسة غيبُ  
إنهم صوِّروك نُورَ ضميري  
أين ألقاك؟ أين ..؟ لا أين، إنني  
حيثما مات فابك أنت عليه

\*\*\*

فعليك تحيتي وسلامي

قال قومٌ وقلت أنت سلامًا

بالجميل النضير من أيامي  
ويروي الظمآن من أحلامي  
في ودادي وفي مَير خصامي

\*\*\*

أزرُق العين؛ يا جمال الجمالِ  
إنه يمتري ضروع الخيالِ  
منك يا فتنة العصور الطوالِ  
يأخذ الأمر عن عيون الغزالِ

\*\*\*

من هنا قيل إنها هيجاءُ  
كل أسنان ثغرها هوجاءُ  
في سبيل الفناء هذي النساءِ  
حرةٌ يعتلي عليها الإماءُ

\*\*\*

أبهذا الوجود يُعقدُ صلحُ؟  
من عتابي عليك وَخزٌ وَجرحُ  
لا تُصدِّق إن قيل في الحب صفحُ  
لحيب جناه كيدٌ وشُحُ

\*\*\*

في سَجَلٍ مُرَقَّمِ الصفحاتِ  
يأمر الناس بالذي هو آت

إنَّ تسليمكم عليَّ بشيْرٍ  
ليت ما قد سمعت يؤنس رُوحِي  
ليتني أغتدي وأمري أمري

يا جمالَ الجمالِ، هذا رقيبٌ  
لا تُصدِّق كلامه في اتهامي  
أمرُ هذا الرقيب يبلغه أمرٌ  
لم أجد قبل محنتي فيك ليثًا

مرأةُ الحرب كيدُها أبديُّ  
مرأةُ الحرب أخطبوطٌ عنيفٌ  
لم أجد امرأةً حميدًا جناها  
حُرَّةٌ تلك؟ إن سمعتم فقولوا

أقبلَ الصلحُ أيُّ صلحٍ؟ أجبني  
أنا، والحب يغتلي في فؤادي  
لست أنسى أمانيًا فيك ضاعت  
غافر الذنب ليس يغفر ذنبًا

أقبلَ الصلحِ، إنهم سَطَّروهُ  
وتنادوا بأن عهدًا جديدًا

فتناسوا ما كان من هَنَوات  
في ظلال الخيرات والشميرات

شبخُ الحرب لن يعود إليكم  
واذكروا أنكم غدوتم جميعًا

\*\*\*

ألمح الحرب فوق كل مكان  
وأسيّر يغتابُ صَرفَ الزمان  
إن خوفي مُرُّ الجنى من أمانى  
خَيْبُ هذا الرجاء إحدى الأمانى

شبخُ الحرب لن يعود؟ فما لي  
أسر شامتٌ يقهقهه جهزًا  
أمزكم للهوى كما صار أمري  
أنا أسرفتُ في الرجاء فأمسى

\*\*\*

من رحيق الصبا وهذا قصيدُ  
«ليس في الكون سيّدٌ ومسود»  
وظبَاءُ تسطو عليها أسود  
أنت أشهى الصُّيود مما أصيد

يا جمالَ الجمالِ أنت قصيدُ  
لا تقل بالذي يقال حديثًا:  
كل عصرٍ به ظلامٌ وصبحُ  
لا تحاول فرارةً من نبالي

\*\*\*

لم «يؤشّر» عليه ذاك الرقيبُ  
وإلى مشرع الندامة ثوبوا  
بأسهم في قتالنا مرهوب  
عاش فيها الأديب وهو غريب

أقبل الصلح؟ ذاك قولٌ عجيبُ  
قد شمتنا بكم، شمتنا، فتوبوا  
زملاءٌ وهم لنا رقباءُ  
يلعنُ الله حقبةً من زمان

\*\*\*

ومساءً يمضي فيأتي صباحُ  
في عهد السلام يُرجى الكفاح  
هم كباشُ جهادهنَّ نطاحُ

قلمي، والحياة جَزُرٌ ومَدُّ  
زَمَنُ الحرب ليس عهد كفاح  
زمنُ الحرب أمره لأناس

قلمي، أنتِ مشرط وزماني طُبُّه من جواه هذا السلاح

\*\*\*

يا فؤادي شهدت حربين فاقنغ  
وتعال استمع لأهات روح  
إن عيشي تغتاله خطرات  
أنا يا قلب لا أبالي زماناً  
بالذي قد شهدته من خُطوبٍ  
هو من صدق جبه في كروب  
هي زمي العيون حبُّ القلوب  
ضاع حظِّي منه وضاع نصيبي

١٩ مايو سنة ١٩٤٥